التعليم الثانوى فى انجلترا

أمس واليوم

بقلم الأستاذ عطيه الابراشى

المفتش بوزارة المعارف

منذ مائة سنة كان التعليم الثانوى بانجلترا جامداً متاخراً ؛ فقد كانت شئون التعليم فى أيدى الجهلة ، وكان الرؤساء يقفون ضد كل تجربة أو إصلاح . وقد ابتدأ التجديد منذ عين (توماس أرنولد) ناظرا لمدرسة (رجبى) ؛ فكان له الفضل الأكبر فى كثير من الإصلاحات ؛ إذ جعل مدرسته نموذجا تقتدى به المدارس الأخرى ، وتحذو حذوه ، وأدخل فى المنهج اللغة الفرنسية ، والعلوم الرياضية ، وعنى بالتعليم الدينى ، والألعاب الرياضية المنظمة ، وبث روح التعاون والحياة الاجتماعية فى المدرسة . وبذلك رفع المستوى العلمى والخلقى فى مدرسته ، وأحيا التعليم الثانوى من مماته ، وأيقظه من سباته .

أخذت الاصلاحات تنتشر منذ سنة ١٨٢٠ إلى يومناهذا . وابتدأ المصلحون يفكرون فى البيئة الاجتماعية ، وفى نفسية الشباب ، واهتموا بالدراسة ، ووضعوا الأساس للنظام الاجتماعى بالمدرسة . ولكنهم بالغوا فى ترك القيادة والمسئولية للعرفاء والكبار من الطلبة فى المدرسة والملعب ، فقاسى صغار التلاميذ كثيراً من قسوة الكبار وتحكمهم فيهم . وكانت العناية كبيرة بحشو أذهان التلاميذ بالمعلومات ، وكانت المدرسة مبنية على المنافسة بين الأفراد ؛ تلك المنافسة التى تؤدى إلى الحقد والبغض بين

صغار المتعلمين . وكان التلاميذ يُجبَرون على الفضيلة ، بالعقاب تارة ، وبالتهديد والوعيد تارة أخرى .

تلك حال المدرسة الثانوية بالأمس ، أما اليوم فقد أصبحت المدرسة الثانوية مثلا أعلى مؤسساً على النظريات والطرق الحديثة فى التربية . وأدخلت فيها روح جديدة ، هى روح التربية الحقة ، وأصبحت العناية بالتربية والتهذيب أكثر من العناية بالعلم والتعليم ؛ فالتلميذ يلعب لا لينتصر على تلميذ آخر ، ولكنه يلعب ويدخل المباراة فى اللعب لنصرة الفرقة التى ينتسب إليها ، ويجتهد ليفوز بجائزة يشرّف بها مدرسته لا نفسه . فهو يعمل ناسياً شخصه ، مفكراً فى الجماعة التى هو منها . يخضع لروحها ، ويحترم مبادئها . فروح التعاون والوفاء منتشرة الآن بالمدرسة . والتلاميذ — وإن اختلف كل منهم عن الآخر فى طباعه وميوله — يمثلون فى المدرسة اليوم أعضاء أسرة كبيرة ، لهم مالها ، وعليهم ماعليها ، يخلصون لها ، ويعملون لرفعتها . وماذا يتعلمون من الدروس الاجتماعية فى المدرسة ؟ يتعلمون واجبهم نحو إخوانهم ومدرستهم والمجتمع الذى ينتسبون إليه .

ولئن كانت المدارس الأولية تعتمد فى نجاحها على طرقها الصالحة التى تتبعها فى التعليم ، فالمدارس الثانوية تعتمد فى نجاحها على شخصية المدرسين بها .

ومن المبادىء المستحسنة فى المدارس الثانوية : الاشتراك فى الألعاب الرياضية والعناية بها ، والاستحمام بالماء البارد صباحا ، والعناية باللغتين اللاتينية والاغريقية أكثر من العناية بالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة والجبر .

ومن الصفات المستقبحة فيها وفى غيرها من المدارس : الكذب ، والغش فى اللعب ، والتظاهر بالضعف ، والغضب وعدم ضبط النفس .

تلاميذ المدارس الثانوية :

إن تلاميذ تلك المدارس من طبقة تختلف عن طبقة تلاميذ المدارس الأولية ؛ فأبناء الطبقة الخاصة والتى فوق الوسط يتعلمون التعليم الابتدائى فى مدارس إعدادية خاصة بهم ، ثم ينتقلون إلى المدارس الثانوية . اما أبناء الطبقة العاملة والمتوسطة الفقيرة فيتعلمون فى المدارس الأولية المجانية ، ولا يجدون فى العادة طريقهم إلى المدارس الثانوية إلا إذا كانوا من الأذكياء الذين نجحوا فى مباراة ، أو حصلوا على جائزة المجانية فى المدارس الثانوية . وهذه هى الفرصة الوحيدة التى بها يختلط أبناء الطبقات الدنيا بأبناء الطبقات العليا . وبها دخلت الروح العامة (الديموقراطية) فى التعليم بانجلترا . ومع هذا فكثيراً ماتشكو هذه المدارس أن الاختلاط قد أدى إلى إفساد تقاليدها القويمة ، وأضر بنظمها المدرسية الخاصة ، وكان سبباً فى كثير من المتاعب وقد اشترطت الحكومة على مديرى تلك المدارس أن يقبلوا نحو ٢٥ ٪ من عدد تلاميذ المدرسة بالمجان ممن يفوزون بجائزة المجانية من المدارس الأولية ، نظير الاعانة التى يتسلمونها من الوزارة . وبهذه الوسيلة لايقبر ذكاء الفقراء من المتعلمين . وقد أظهروا مقدرة كبيرة ، وكانوا القادة فى المدرسة من الوجهة العلمية وفى مقدمة المجدين من الطلبة ، والمثل الأعلى فى أداء الواجب . وفى كل سنة يقبل فى المدارس الثانوية بالمجان أكثر من ٣٠٠٠٠ تلميذ من الطبقة الفقيرة . وفى سنة ١٩٢٥ كان عدد الطلبة الذين بالمجان فى تلك المدارس ١٣٤١٧٧ طالب . وإن انتشار جوائز المجانية للفائقين فى الذكاء والمعرفة ساعد الأذكياء فى العمل للوصول إلى المنزلة اللائقة بهم . ويؤخذ على ذلك النظام إهمال المتوسطين فى الذكاء فى دور التعليم الثانوى ، فهم لايجدون التعليم الحق الذى يجده التلميذ المتوسط فى المانيا .

إصلاح التعليم الثانوى :

فى سنة ١٨٩٤ ألفت لجنة ملكية برياسة (المستربرينس) للنظر فى التعليم الثانوى ، فمكثت سنتين تدرس هذا النوع من التعليم ، وكان لها أثر كثير فى إصلاح المدارس الثانوية . وقد نفذت آراؤها بالتدريج. ومنها : ألا تغلق المدارس الرديئة وتحل محلها مدارس حديثة ، بل تصلح ويتلافى مافيها من الأخطاء . وأن تحسن مالية هذا النوع من التعليم ، فأصلحت المدارس الموجودة ، وأنشىء كثير غيرها من المدارس الحديثة ؛ حتى تفى بحاجة من يرغبون فى التعليم الثانوى بعد الانتهاء من التعليم الابتدائى .

وفى سنة ١٨٩٧ قامت وزارة التعليم باحصاء المدارس الثانوية غير الخاضعة لها فوجدتها ٦٢٠٩ مدرسة ، منها ١٩٥٨ مدرسة للبنين ، و٣١٧٣ مدرسة للبنات ، و ١٠٧٨ مدرسة للبنين والبنات معا .

وبقانون سنة ١٩٠٢ أصبح للمجالس المحلية للتعليم الحق فى بناء المدارس الثانوية وفتحها ومعاونتها .

مدة التعليم الثانوى :

إن المدة الثانوية للتعليم الثانوى أربع سنوات ، ولكنها مدة نظرية . وفى الغالب يمكث التلميذ بالمدرسة الثانوية ست سنوات ، ويتركها وعمره نحو ١٦ سنة أو أكثر . وبعد نهاية الحرب العالمية الكبرى قدرت انجلترا أثر التعليم فى الرقى ، واعتبرته أكبر قوة ثابتة تحفظها من الفناء ، فشجعت التعليم الثانوى ، وخصصت جزءا كبيرا من المال لتحسينه ، وأصلحت طريقة الامتحانات ، وحسنت مستوى المدرسين باختيارهم من الأكفاء المحبين لمهنة التدريس ، الذين أعدوا أنفسهم لها ، ودرسوا قسطا وافرا من علوم التربية . فتحسن التعليم الثانوى تحسنا محسا ، وزاد عدد المدارس ، وتضاعف عدد الطلبه والطالبات .

أنواع المدارس الثانوية :

إذا استثنينا المدارس الأهلية التى يقوم البعض بإنشائها حبا فى التجارة والربح أمكننا أن نقول : إن الأنواع الرئيسية للمدارس الثانوية أربعة يختلف كل منها عن الآخر بعض الاختلاف . وهى :

(١) ما يسمى بمدارس العامة . والحقيقة أنها مدارس للخاصة أو الأشراف .
(٢) مدارس الأجرومية للبنين .
(٣) المدارس العالية للبنات ؛ وهى عالية إسما ، ثانوية فعلا .
(٤) المدارس الاقليمية الثانوية ، وهى فى العادة مدارس مختلطة للبنين والبنات . ولنتكلم عن النوع الأول منها فنقول :

مدارس العامة :

أشهرها تلك المدارس التسع الخاصة بطبقة الأشراف من الأمة ، وهى موضع فخر انجلترا ، وموضع إعجاب غيرها من الشعوب منذ مئات السنين . وهى : « مدرسة إيتُون ، وهَارُو ، ورَجْبى ، وونْشِسْتَر ، ووسْتمنسْتَر ، وكارْتَرْهوس ، ومِرْشانت تيلَرْز وشْرُوزْبرى ، وسانت پول » . ولها شهرة كبيرة ، وصيت ذائع فى جميع أنحاء العالم .

وقد انتقد أحد الأمريكيين تسميتها فقال : إنها سميت عامة لأنها للخاصة ، ودعيت انجليزية لأنها تعلّم كثيرا من اللاتينية ، وقيل إنها مدارس لأنها تقضى ثلثى وقتها فى الألعاب الرياضية .

والحق أنها أثمرت ثمرا طيبا ، والمدارس تعرف بثمارها ، ولا يمكننا أن ننكر ما قامت به نحو التعليم ، ونحو انجلترا فى الخارج . ولا عجب إذا أرسل كثير من الملوك أبناءهم ليتعلموا فى إيتون وهارو ؛ ففى تلك المدارس تتمثل روح الصداقة بين المدرس والتلميذ ، وتبدو روح النظام والاخلاص

والتعاون ، وتظهر روح الحكم لمصلحة المحكومين ، والعناية بخدمة المصلحة العامة ، وبالتعليم الخلقي والديني . وهناك نحو ٦٠ مدرسة من مدارس خاصة غير السالفة الذكر . وقد كثر الاقبال عليها من منتصف القرن التاسع عشر للأسباب الآتية :

(١) شدة عنايتها بالتربية الخلقية .

(٢) اتساع الامبراطورية البريطانية ، واحتياج الانجليز الذين يعيشون خارج انجلترا إلى مثل تلك المدارس كي يتعلم فيها أبناؤهم .

(٣) شعور الطبقة الراقية من الأمة بالحاجة إلى نوع أرقى من مدارس الأجرومية التي كانت متأخرة حتى سنة ١٨٧٠ .

(٤) إنشاء السكك الحديدية ، وسهولة السفر والمواصلات .

(٥) ازدياد الثروة ، وكثرة الأغنياء الذين يستطيعون القيام بمصروفات هذه المدارس .

(٦) ولع الطبقة الوسطى بتقليد طبقة الأشراف في تعليم أبنائهم بذلك النوع من المدارس حباً في الظهور .

وهذه المدارس داخلية عادة ، ويسمح للتلاميذ الذين تقرب مساكنهم من المدرسة بأن يقبلوا نصف داخلية . وهم يلتحقون بها وعمرهم بين ٩ سنوات و١٣ سنة ، وذلك بعض قضاء أربع سنوات في المدارس الاعدادية الخاصة التي يتعلمون فيها مبادئ اللغات الأجنبية ، ومبادئ الرياضة والعلوم .

والمصروفات المدرسية بامظة يشكو منها الأغنياء أنفسهم . وكانت قبل سنة ١٩١٨ بين ٨٠ جنيها و١٠٠ جنيه في السنة للداخلية . أما اليوم فنحو ٢٠٠ جنيه في السنة . أضف الى ذلك ما يحتاج اليه التلميذ من ثمن كتب وثمن ملابس تناسب تقاليد المدرسة ، وثمن أدوات وصور لتزيين حجرته الخاصة .. الخ . وكثيراً ما تجد التلميذ (الأمير أو اللورد)

يفخر بأن أباه وعمه وجده كانوا فى نفس المدرسة ، وبمنزل كذا من المدرسة ، وبالحجرة رقم كذا . .

وينقسم الجزء الداخلى من المدرسة إلى منازل ، وكل منزل له أستاذ يرأسه ، ويديره ويتولى شؤونه ، ويسكن جانباً منه مع أسرته . وصلته كبيرة بكل تلميذ ، كصلة الأب بالابن ، ويشعر التلميذ شعوراً مملوءاً بالفخر والاخلاص للمدرسة أولا ، والمنزل الذى ينتمون إليه ثانياً . ولهذه المدارس أثر ظاهر فى الوسط الانجليزى . ومنهجها كمنهج المدارس الثانوية والنجاح فى امتحان القبول شرط من شروط الالتحاق بالمدرسة

ويبلغ مرتب الناظر فى بعض مدارس الخاصة الآلاف من الجنيهات فى السنة ، فهو يتسلم مرتباً أكبر من مرتب رئيس جمهورية الولايات المتحدة بأمريكا . أما مرتب الوكيل فمئات من الجنيهات ليس غير . ولا مبرر لهذا الفرق الكبير بين مرتب الناظر وبين مرتب الوكيل . ويختار النظار والأساتذة من الطبقة الخاصة ممن تعلموا فى تلك المدارس ، واعتادوا نظمها وتقاليدها ، ثم أتموا دراستهم فى اكسفورد أو كمبردج .

آراء بعض الفلاسفة والمربين فى مدارس الخاصة :

يرى الفيلسوف (برتراند رسل) أن من عيوب هذه المدارس الثانوية أنها (ارستقراطية) للخاصة . الغرض منها تربية رجال ليحكموا وتكون لهم القوة والسيطرة فى انجلترا وفى خارجها . فهى تعمل على أن يكون الطالب فيها مثلا فى النشاط والشجاعة والصحة ، وعدم التأثر ، والاستبداد ، والثبات على المبدأ ؛ والاستقامة بحيث يستطيع القيام بأمر هام فى هذا العالم . وفى سبيل الحصول على هذه الأغراض قد ضحى العقل والتفكير ، لأنهما يؤديان إلى الشك أو التردد ، والشك أو التردد عقبة فى سبيل الارادة الحديدية المنفذة . ثم ضحيت العاطفة والمشاركة

الوجدانية ، وأهمل الخيال ، فى سبيل الثبات وعدم التحول عن الرأى . فمدارس الخاصة سائرة على النظام الاسبرطى بما فيه من حسنات ومثالب . ويعتقد (اللورد رَسل) أن العالم الحديث فى حاجة كبيرة إلى الذكاء ، وإلى نوع خيالى من الشبان الذين يشاركون الناس فى مسراتهم وأحزانهم ، وإلى نوع أكثر مرونة من الناحية العقلية بحيث يكون على استعداد للأخذ والعطاء . ولا يعتقد رَسل كثيرا فى القوة الحيوانية ، ولكنه يعتقد كثيراً فى المهارة الفنية والصناعية .

ويرى « مستر جراهام جرين » وغيره من المربين أن نظام الطبقات ظاهر فى تلك المدارس ، وابناء الفقراء الذين يفوزون — بجدهم وذكائهم — بمجانية الحكومة فى مدارس الخاصة بعد الانتهاء من الدراسة الأولية ينظر اليهم نظرة احتقار ويهزأ من نطقهم ولغتهم . والحق ان ابناء الأشراف لا يشعرون بأنهم من طبقة ؛ وان غيرهم من طبقة اخرى ، ولا يدركون ان هناك فرقا بين الطبقتين ولكن اساتذتهم المحبين للظهور ووسائل التظاهر ، هم الذين بثوا فى نفوسهم هذه الروح ، روح التفرقة ؛ فان كان هناك لوم فالجدير به هؤلاء الأساتذة

والحق ان مثالب هذه المدارس ليست شيئا يذكر بجانب محاسنها

محمد عطية الابراشى
المفتش بوزارة المعارف